علاقة مصر ببلاد النوبة

فى الجنس والدين

للأستاذ فهمى عبد الجواد حبيب

تمهيد

بلاد النوبة من البلاد القديمة تقع جنوب مصر وعلى بعد خمسة أميال من مدينة أسوان . ويحدها من الشرق البحر الأحمر ومن الغرب صحراء ليبيا ، وتمتد جنوباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق ، غير أن هذا التحديد جغرافياً أكثر منه سياسياً فلم يكن لها حدود سياسية ثابتة . وقد كان ملوك الدولة المصرية القديمة يسمونها « خنت » أى الأراضى الجنوبية كما كانت تسمى « Ta - Sti » أى أرض القوس (أى المشهورون برمي النبال) ولهذا سماهم العرب رماة الحدق .

وقد أخطأ بعض الكتاب فى إطلاق كلمة كوش على جميع بلاد النوبة ، والصواب أن إقليم « كوش » يمتد من الجندل الثانى تقريباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق ، وأما الاقليم الواقع بين الجندلين الأول والثانى فكان يعرف « بالواوات »

هذا ويطلق أيضاً بعض الكتاب خطأ كلمة « أثيوبيا » على بلاد النوبة معتمدين فى ذلك على خريطة سريدوت ومن نحا نحوه من المؤرخين ، فينسبون للنوبيين ما ليس لهم إذ أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعنون بكلمة « اثيوبيا » جميع البلاد الواقعة جنوب مصر كالسودان والحبشة وغيرها . ومما زاد الطين بلة ، وتعزيز هذا التعريف الخاطىء ما وقع فيه رهبان سوريا من الخطأ عند ترجمتهم الانجيل من اليونانية حيث ترجموا كلمة « كوش » « أثيوبيا ويعنون بها بلاد الحبشة .

وكانت النوبة على عهد العرب تنقسم قسمين : النوبة السفلى تمتد من الجندل الأول إلى الرابع وعاصمتها دنقلة ، والنوبة العليا تمتد من الجندل الرابع حتى بلاد الحبشة وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق .

وقد كانت لهذه البلاد فى وقت ما عزة ومناعة ثم اعتورها ما يعتور كل موجود حتى صارت حالها إلى ما هى عليه الآن .

العلاقة بينها وبين مصر فى الجنس

أجمع المؤرخون على أن المصريين والنوبيين من أصل واحد مدللين على صحة قولهم هذا بأن كلا الشعبين ينتسب إلى الجنس الحامى فضلا عن تشابه لون بشرتهم . والواقع أن سكان مصر العليا والنوبة حتى الآن متشابهان ، وأما الوجه البحرى فنظراً لأن حدود مصر من جهة القنطرة سهلة الغزو فكان عرضة للغارات الخارجية ولذا سار منها الغازون أمثال الرعاة والاسكندر وقمبيز وغيرهم ؛ ومن ثم تأثر الوجه البحرى بدم هؤلاء الغزاة فتغير كثيراً عن مصر العليا . وهناك عامل آخر أثر فى جنسية سكان شمالى مصر وبشرتهم نوعاً ما ، ذلك أنه رحل إلى شمالى افريقيا قبل بناء الأهرام بعض الأوربيين ، وهؤلاء المهاجرون انتشروا فى شمالى افريقيا حتى جزائر كناريا . وقد وجدت ابنة خوفو شرق الهرم الأكبر من الجنس الأبيض ذى الشعر الأشقر وتعليل ذلك أن خوفو تزوج واحدة من هؤلاء البيض ، كما أنه وجد فى العوينات رسوم لفريقين من المتحاربين السمر والبيض

وقد حدث فى عهد الأسرة العشرين حادث ذو بال : ذلك أنه فى عهد هذه الأسرة قل دخل الحكومة لفقد مصر كثيراً من البلاد الآسيوية فنقص ما كان يتقاضاه كهنة آمون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فضلا عن ضعف الملوك ، فدعا ذلك إلى ازدياد سلطة هؤلاء الكهنة حتى تمكن أحد رؤسائهم المسمى « حرحور » من اغتصاب العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين ، ولكن المصريين اعتبروا كهنة آمون مغتصبين للملك فصار عهدهم فوضى ولم يستطيعوا حفظ سلطانهم ولا القيام بما تتطلبه عظمة آمون من النفقات ، ورأوا أن معبودهم يعبد فى « نبتة » عاصمة النوبة فى ذلك الوقت وأن له المقام الأول بين آلهة النوبيين فلهذا اختاروا « نبتة » لتكون قبلتهم فى هجرتهم فهاجروا إليها من طيبة بعد أن حكموا بها ١٢١ سنة من ١١٠٠ — ٩٧٩ قبل الميلاد .

وقد رحب بمقدمهم النوبيون نظراً لأن المدنية التى نشرها المصريون فى النوبة كانت لا تزال قوية الدعائم ، وكان هؤلاء الكهنة

على جانب كبير من العلم فساعدهم هذا على أن يكونوا رؤساء كهنة آمون فى نبتة وتدخلوا فى السلطة الزمنية كما سبق أن تدخلوا فى مصر وتزاوجوا مع النوبيين .

وفى عهد الأسرة ٢٣ تزوج أمير نوبى يسمى « كاشتا » أميرة مصرية ، ثم خلفه على ملك النوبة ابنه « بعنخى » وهنا يجب علينا أن نشير إلى ماهذا التزاوج من أهمية إذ لو كان النوبيون ممتزجين بدم زنجى لما قبل الكهنة على ماهم عليه من المقام الرفيع أن يتزاوجوا بهم ، ولما تزوج نوبى بأميرة مصرية .

الديانة

كان النوبيون كالمصريين يعبدون آلهة عدة مثل تيتون وملول، ولما استولى المصريون على بلادهم احترموا آلهتهم ثم أدخلوا عبادة آمون بها وأقاموا له المعابد ، وأخذ النوبيون يعبدون آمون حتى أصبح أكبر آلهتهم وصارت آلهتهم الأصلية في مقام ثانوى

وكان النوبيون يعبدون من الآلهة المصرية غير آمون إزيس وأوزيريس .

دخول المسيحية البلاد

لا يعلم بالضبط كيف ومتى دخلت المسيحية بلاد النوبة ؛ ويقول البعض إنها دخلت من جهة الجنوب ، ولكن ليس هناك دليل يثبت صحة ذلك . والمرجح أنها دخلت فى هذه البلاد من جهة الشمال عن طريق مصر فى أول القرن السادس حيث كانت الوثنية هى دين أهل البلاد « فالبيبيدوس » الذى زار النوبة فيما بين ٤٠٧ — ٤٢٥م يقول إن البجة وقبائل أخرى من سكان الصحراء الشرقية كانوا وثنيين ، كما أن كتاب شيود وسيوس يثبت أن عبادة إزيس وأوزيريس كانت منتشرة فى بلاد النوبة فى هذا الوقت ؛ وحتى بعد ذلك بثلاثين سنة كانت إزيس تعبد فى جزيرة فيلة . ويؤيد دخول المسيحية إليها من الشمال عن طريق مصر أن المسيحية لما انتشرت فى الأمبراطورية الرومانية أخذ الأباطرة يضطهدون معتنقيها ففر بعضهم من مصر التي كانت تحت سيطرتهم فى ذلك الوقت إلى الجنوب كما فر البعض إلى الواحات الغربية ليكونوا فى مأمن من أذى الرومان وبطشهم . وهذا هو بعينه ما حصل مع الفاروق لكهنة طيبة ، فانهم لما أرادوا الهجرة ذهبوا إلى النوبة كما ذهب إليها المماليك فى عهد محمد على باشا فراراً منه

ولما زاد اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين وأوقع بهم وقعته المشهورة كثر التجاء الرهبان وغيرهم إلى الجبال والصحراء فنزح إليها الكثيرون وأقاموا بها ينشرون بدينهم ما استطاعوا ، حتى إذا ما أتى زمن قسطنطين وترك للمسيحيين حريتهم واستأمن الرهبان وغيرهم أخذوا فى الظهور وفى إعلان الديانة المسيحية يعملون لها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان لسلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبة أكبر نصيب فى انتشار المسيحية فى هذه البلاد فقد وجد فى معبد كلابشة كتابة ترجمتها « أنا سلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبيين كافة قد أتيت إلى كلابشة مرتين وحاربت سكان الصحراء الشرقية (البجة) ونصرنى الله عليهم وأقسموا لي بآلهتهم إزيس وأوزيريس فصدقتهم) والإله الذى نصر سلكو هو بلا شك إله المسيحيين . ومن هذه الكتابة أيضاً تعلم أن سكان الصحراء الشرقية كانوا إلى آخر القرن السادس الميلادى يعبدون الآلهة المصرية . وقد كان من نتيجة المودة بين سلكوا وجستينيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) أن أرسل الأخير أسقفا وهدايا إلى سلكو فعمد هذا الأسقف الملك، سلكو الذى أخذ ينشر المسيحية في بلاده . وفى عهد خلفه أرباتوم تحولت معابد كلابشة والسبوع وعمدة وأبو سمبل وفيلة إلى كنائس ، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن السادس واتخذ المسيحيون دنقلة عاصمة للمملكة المسيحية .

دخول الاسلام البلاد

أرسل عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر في مصر عبد الله بن سعد لغزو بلاد النوبة عام ٢١ هـ فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولكنه لم يتعرض لدينهم

وفى عام ٣١ هـ غزاهم عبد الله بن سعد فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه لثانى مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه : « وعليكم حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم » .

ومن هذا العهد يتضح لنا أمران :

الأول — أن النوبيين حتى عام ٣١ هـ كانوا يدينون بالمسيحية